تصديـــــر

« بسم الله الرحمن الرحيم »

﴿نحمدك اللهم ونستعينك ونستهديك، ونصلى ونسلم على خاتم أنبيائك ورسلك سيدنا محمد وبعد﴾

فإن مجال الدراسات العربية والإسلامية يتسع ليشمل كل أثر علمي يخاطب الإنسان في وجدانه وعقله ونشاطة المتعدد .

ويقدم المركز خدمته للباحثين في هذه المجالات باللغة العربية واللغات الأخرى متبعاً في ذلك مبدأ المنهج العلمي الذي ينهض به الأساتذة المتخصصون حيث يُحكِّمون في الأعمال المقدمة للنشر بمجلة المركز ، ولا يجاز إلا العمل الملتزم بالتوثيق العلمي ، وأصالة المصدر ، وسلامة المقدمات ، وعدم التكلف في الوصول إلى النتائج ، مع إعطاء الباحث حقه في التعبير عن موقفه العلمي تجاه الموضوع المدروس ، ومسئولية الباحث عن هذا .

ومن ذلك نرى في إصدرات مجلة المركز التنوع المفيد في الموضوعات مع سلامة المعالجة مما يعين الباحثين وغيرهم على الإنتفاع بهذه الثمرات المحكَّمة .

كما نرى هذا التلاقي بين الباحثين من داخل مصر وخارجها .

« ونسأل الله التوفيق والنفع بها »

متشابه التقديم والتأخير في القرآن الكريم

دراسة بلاغية

د/ عبد الحميد هنداوي *

تعدُّ قضية التشابه في القرآن الكريم من القضايا التي أثارت كثيرا من الجدل في القديم والحديث ؛ حيث اعتمد عليها المغرضون والطاعنون في القرآن الكريم لإثارة الشبهات والشكوك لدى العامة وذوي الجهالة بفنون الفصاحة والبيان.

ومن ثم فإن الحاجة لا تزال ملحة للدراسة المتأنية حول ما في هذا الكتاب المعجز من صور وأنماط عديدة للتشابه .

ومن هذه الأنماط : نمط التشابه بالتقديم والتأخير – موضوع هذا البحث – و"هو بابٌ كثيرُ الفوائد ، جَمُّ المحاسن ، واسعُ التصرُّف ،بعيدُ الغاية . لا يزالُ يفتَرُّ لك عن بديعةٍ ويُفضي بكَ إلى لطيفةٍ . ولا تزالُ ترى شِعراً يروقُك مسمَعُه ، ويَلْطُف لديك موقعُه ، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أنْ راقك ولطُف عندك أن قُدِّم فيه شيءٌ وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان ."[i]

تعريف التشابه والتفريق بينه وبين التكرار :

لا بد أن نفرق أولا بين ما يمكن أن يعد من التشابه وما يمكن أن يعد من التكرار ، وأن نبين ضابط كل منهما ؛ حيث إن ذلك مما قد يلتبس على الدارسين أو يُلبِّس به الطاعنون والمغرضون ، فيعدُّون كلَّ تشابه نوعا من التكرار ؛ فضلا عن ذمهم التكرار على إطلاقه ، دون تفرقة بين ما هو مفيد أو ما يعد لغوا وعبثا [ii] مما نزه الله عنه كتابه الكريم.

لقد حدَّ الزركشي والسيوطي مفهوم المتشابه بأنه : "هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى ، وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء"[iii]

وذكر ابن جماعة أن موضوع كتابه – وهو المتشابه ، كما يبدو من عنوان كتابه – هو الآيات التي تكررت معانيها واختلفت ألفاظها ،"من اختلاف ألفاظ معانٍ مكررة ، وتنويع عبارات فنونه المحررة من تقديم وتأخير ، وزيادات ونقصان ،وبديع وبيان ،وبسط واختصار ،وتعويض حروف بحروف أغيار"[iv]

وعرف الكرماني الآيات المتشابهات بأنها هي :"التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة ؛ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان ، أو تقديم أو تأخير ، أو إبدال حرف مكان حرف ،أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين ، أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان"[v]

وبنحو من ذلك عرفه كل من الخطيب الإسكافي وابن الغرناطي"[vi]

والمدقق في هذه التعريفات يجد أن أصحابها قد حالفهم الصواب في كثير من الأحيان ، وبخاصة حديثهم عن أنماط المتشابه ؛ فلقد أشاروا إليها إشارات دقيقة ؛ لكن هؤلاء قد خالفهم التوفيق حين جعلوا التكرار يتعلق بالألفاظ تارة-الإسكافي والغرناطي والكرماني ،وحين جعلوا التكرار يتعلق بالمعاني تارة أخرى -الزركشي والسيوطي وابن جماعة – ،وحين جعلوا التكرار صورة من صور المتشابه؛ لأن بين المتشابه والتكرار فروقا دقيقة جدا **فالتكرار هو إعادة الشيء بنفسه لفظا ومعنى ، لغرض يستدعي إعادته في مقام واحد ، وفي سياق واحد** •؛ فإذا اختلفت الألفاظ فلا تكرار ؛ لأن اختلاف الألفاظ لابد أن يؤدي إلى اختلاف المعاني ؛ فالمعنى الواحد ليس له سوى عبارة واحدة ؛ فمن المحال أن تتفق عبارتان في معنى واحد وبينهما أدنى اختلاف "[vii]

وهذا كلام صحيح ،ويؤيده كلام عبد القاهر الجرجاني حيث يقول :" ولا يغرَّنك قولُ الناسِ : قد أتى بالمعنى بعينهِ وأخذَ معنى كلامِه فأدّاه على وجهه فإنه تسامحٌ منهم . والمرادُ أنه أدَّى الغرضَ فأما أن يؤديَ المعنى بعينه على الوجهِ الذي يَكُونُ عليه في كلامِ الأوَّلِ حتى لا تعقلَ ها هُنا إلاّ ما عَقَلتَه هناك وحتى يكونَ حالُهما في نفسك حالَ الصورتين المُشْتبهتين في عينك كالسِّوارين والشِّنْفين ففي غاية الإحالةِ وظنٌّ يُفضي بصاحبِه إلى جَهَالةٍ عظيمةٍ" [viii]

ومن ثم فلا عبرة في التكرار بمجرد اتفاق الألفاظ إذا ما اختلف نظمها ؛ فمثل هذا لا يعدّ تكرارا ، وكذلك إذا اختلف المقام أو السياق فلا تكرار . ومن ثم يتضح أن القول بأن التكرار ينقسم إلى تكرار في الألفاظ دون المعاني ، وتكرار في المعاني دون الألفاظ ، وتكرار في الألفاظ والمعاني جميعا [ix]قول لا أساس له ولا وزن عند المحققين من أهل العلم والبلاغة والنقد قديما وحديثا ؛ لأنه يقوم على الفصل بين شيئين لا فصل بينهما ، وبخاصة

في التراكيب ، وهما اللفظ والمعنى ؛ إذ لا يتصور لأحدهما وجود بدون الآخر، فهما وجهان لعملة واحدة [x]؛ فالألفاظ أجساد والمعاني أرواحها [xi].

أنماط التشابه ومواقع التقديم والتأخير منها :

نستطيع – من خلال ما سبق عرضه من أقوال العلماء الذين تعرضوا لقضية المتشابه بالدراسة والتحليل – نستطيع أن نقف على نمطين للتشابه في القرآن الكريم :

النمط الأول : اتفاق آيتين أو أكثر في بعض الألفاظ مع الاختلاف بينها بصور ووجوه شتى.

النمط الثاني : : اتفاق آيتين أو أكثر في جميع الألفاظ والمعاني مع الاختلاف في الغرض أو المقام أو السياق .

أما النمط الأول :فله صور وأنماط فرعية تتمثل في :

الاختلاف المعجمي :(إبدال كلمة بأخرى)

الاختلاف الصرفي : (إبدال صيغة بأخرى)

اختلاف البناء النحوي :

وله صور منها :

اختلاف التقديم والتأخير

اختلاف الحذف والذكر

اختلاف التعريف والتنكير

اختلاف الفاعل

اختلاف المفاعيل

اختلاف المتعلق

اختلاف النعت

اختلاف صيغة النداء ....الخ

اختلاف البناء الفني :

وله صور منها :

اختلاف البداية

اختلاف الفاصلة

اختلاف التعقيب

اختلاف الأسلوب (وله صور منها)

الاختلاف خبرا و إنشاء

الاختلاف إثباتا ونفيا

الاختلاف حقيقة ومجازا

الاختلاف بالتأكيد وتركه

اختلاف الأداء الصوتي :

وله صور كثيرة تظهر في الاختلاف بين وجوه القراءات منها :

اختلاف أوجه المد على ما هو معروف بين القراءات

الاختلاف في الإمالة و تركها كما في (مجراها ومرساها)

الاختلاف في الهمز وتسهيله

الاختلاف في حركة البناء كما في (عاهد عليهُ الله) ...الخ

وموضوع البحث - الذي نحن بصدده – هو اختلاف الآيتين المتشابهتين بالتقديم والتأخير ، وهو صورة من صور الاختلاف النحوي في أنماط التشابه .

صور التقديم والتأخير في متشابه القرآن :

يجعل عبد القاهر التقديم على وجهين ؛ فيقول :

"واعلمْ أنَّ تقديمَ الشيء على وجهين :

تقديمٍ يقالُ إنه على نيَّةِ التأخير وذلك في كلّ شيءٍ أقررْتَه معَ التقديمِ على حُكمهِ الذي كان عليه وفي جنسهِ الذي كانَ فيه كخبرِ المبتدأ إذا قَدَّمْتَه على المبتدأ ، والمفعولِ إذا قدمتَه على الفاعل كقولك : منطلقٌ زيدٌ وضربَ عمراً زيدٌ . معلومٌ أن " منطلق " " وعمراً " لم يَخرجا بالتقديم عمَّا كانا عليه من كونِ هذا خبرَ مبتدأ ومرفوعاً بذلك وكونِ ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله . كما يكونُ إذا أخَّرتَ .

وتقديمٍ لا على نيَّةِ التأخيرِ ولكنْ على أن تنقلَ الشيءَ عن حُكمٍ إلى حكمٍ وتجعل له باباً غيرَ بابه وإعراباً غيرَ إعرابه وذلك أن تجيءَ إلى اسمين يحتملُ كلُّ واحدٍ منهما أن يكونَ مبتدأً ويكونُ الآخرُ خبراً له فتقدمُ تارةً هذا على ذاك وأخرى ذاك على هذا . ومثالُه ما تصنعُه بزيدٍ والمنطلقِ حيث تقولُ مرةً : زيدٌ المنطلقُ . وأخرى : المنطلقُ زيدٌ . فأنتَ في هذا لم تقدِّم المنطلقَ على أن يكونَ مَتروكاً على حُكْمِه الذي كان عليه معَ التأخير فيكونُ خبرَ مبتدأ كما كانَ بل على أنَّ تنقُلَه عن كونه خبراً إلى كونه مبتدأ . وكذلك لم تؤخِّر زيداً على أن يكون مُبتدأ كما كان بل على أن تُخرجَه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبراً . وأظهرُ من هذا قولُنا : ضربتُ زيداً وزيدٌ ضربتُه . لم تقدم زيداً على أن يكون مفعولاً منصوباً بالفعل كما كان ولكن على أن ترفعَه بالابتداءِ وتشغلَ الفعلَ بضميرِه وتجعلَه في موضعِ الخبرِ له"[xii]

ونخلص من ذلك إلى أن عبد القاهر يقسم التقديم إلى وجهين ، وذلك بمراعاة المرتبة النحوية للمقدم ، ونية المتكلم في إبقاء المقدم على حكمه من حيث التأخير ، أو تحويله عنه ؛ فمن ثم ينقسم قسمين :

تقديم على نية التأخير : وذلك مثل قولك : (ضربَ عمراً زيدٌ) فالمفعول به مقدم ولكنه باق على حكمه وهو التأخر عن فاعله ؛ فلذا يقال فيه : مقدم على نية التأخير .

ومنه في القرآن قوله تعالى: " **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ** " (**البقرة :١٢٤**)

ومنه قوله تعالى: " **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** "[xiii] (**المائدة :٦٩**)

تقديم لا على نية التأخير : و ذلك مثل قولك : (زيد ضربته) بدلا من قولك :(ضربت زيدا) حيث أردت بتقديمه تحويله من موقع المفعولية إلى موقع الابتداء .

ومنه في القرآن قوله تعالى: " **إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى**" (**البقرة : ١٢٠**)

مع قوله تعالى :" **إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ** " (آل عمران :٧٣)[xiv]

ويمكننا أن نقسم متشابه التقديم والتأخير في القرآن إلى أقسام وأنماط أخر ، لا بالنظر إلى نية المتكلم في تأخيره أو عدمه ؛ ولكن بالنظر إلى صور وأنماط اختلاف التركيب النحوي بالتقديم والتأخير ؛ فمن ثم تظهر لدينا الصور والأنماط التالية :

أنماط متشابه التقديم والتأخير :

تقديم أحد الركنين على الآخر .

تقديم الفضلة على أحد ركني الجملة .

وله صور ، منها :

(أ) تقدم الفضلة على ركن الجملة الاسمية (الخبر)

(ب) تقدم الفضلة على ركن الجملة الفعلية (الفاعل)

٣- تقديم بعض الفضلات على بعض .

وله صور ، منها :

تقديم بعض جمل الحال على بعض .

تقديم بعض الجمل المعطوفة بعضها على بعض .

تقديم بعض المفردات المعطوفة بعضها على بعض .

تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض

تقديم فضلة على أخرى غيرها في النوع .

النمط الأول : تقديم أحد الركنين على الآخر :

وقد مثَّل له عبد القاهر بما تصنعه في قولك (زيد المنطلق) من تقديم أحدهما على الآخر لا على نية التأخير ؛ حيث لم تقدِّم المنطلقَ على أن يكونَ مَتروكاً على حُكْمِه الـذي كان عليه معَ التأخير فيكونُ خبرَ مبتدأ كما كانَ بل على أنَّ تنقُلَه عن كونهِ خبراً إلى

كونه مبتدأ . وكذلك لم تؤخِّر زيداً على أن يكون مُبتدأ كما كان ؛ بل على أن تُخرجَه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبراً [xv].

ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى " **إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى**"

مع قوله " **إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ**"

وذلك في قوله تعالى:" **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** "(البقرة :١٢٠)

وقوله تعالى:" **وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلا تُؤْمِنُوا إِلا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** "(آل عمران :٧٣)

قال الكرماني :" "قوله : (قل إن الهدى هدى الله) في هذه السورة (**آل عمران :٧٣**) وفي (البقرة:١٢٠) :(قل إن هدى الله هو الهدى) ؛لأن الهدى في هذه السورة(**آل عمران :٧٣**) هو الدين ، وقد تقدم في قوله: (لمن تبع دينكم) ،وهدى الله الإسلام ؛فكأنه قال بعد قولهم :(ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) :(قل إن الدين عند الله الإسلام) كما سبق في أول السورة.

والذي في البقرة معناه القبلة لأن الآية نزلت في تحويل القبلة ، وتقديره: (قل إن قبلة الله هي الكعبة." [xvi]

و لم يتعرض لبيان هذه العلة أحد ممن صنفوا في المتشابه – فيما أعلم – فلم يتعرض لها على سبيل المثال كلٌّ من الإسكافي والغرناطي ، و لم يزد ابن جماعة وكذلك الأنصاري على ما ذكره الكرماني شيئا ؛ بل اكتفى الأول بتلخيص عبارته في ذلك. [xvii]

والذي ذكره الكرماني – وتبعه فيه ابن جماعة وغيره - يصلح أن يكون تفسيرا لكلمة الهدى في الموضعين ؛ لكن ليس فيه بيان لعلّة التقدم والتأخير فيهما.

ولكننا إذا تأملنا كلام الزمخشري في آية البقرة أمكننا أن نستشف منه تلك العلّة ، يقول الزمخشري :"كأنهم قالوا : لن نرضى عنك وإن أبلغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا ،

إقناطاً منهم لرسول الله ﷺ من دخولهم في الإسلام ، فحكى الله عزّ وجلّ كلامهم ، ولذلك قال : { قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهدى } على طريقة إجابتهم عن قولهم ، يعني أن هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق ،وهو الذي يصح أن يسمى هدى ، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى ، وما تدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى . ألا ترى إلى قوله : { وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم } أي أقوالهم التي هي أهواء وبدع { بَعْدَ الذي جَاءكَ مِنَ العلم } أي من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة "[xviii]

ومعنى ذلك أنه يرى أن الآية قد قصرت الهدى على هدى الله ؛ فناسب ذلك تقديم هدى الله مع الإتيان بضمير الفصل (هو) لإفادة القصر ؛ فيكون المعنى : (إن هدى الله لا غيره هو الجدير باسم الهدى الحقيقي الكامل الذي لا ضلالة فيه) وقد ساعد على ذلك اشتمال (الهدى) على (أل) الجنسية المفيدة للحقيقة والماهية والكمال .

ودلالة السياق تساعد على ذلك ؛ وذلك أن أهل الكتاب قد تبجحوا فأعلنوا للرسول ﷺ أنهم لا يرضون عنه حتى يتبع ملتهم ؛ كأنهم يزعمون بذلك أنهم على هدى ، ويدعون الرسول ﷺ لاتباع هذا الهدى الذي يزعمونه،فكذّب الله تعالى دعواهم ، وبين لهم ألا هدى حقيقيًّا إلا ما أنزل على الرسول ﷺ لخلوه من التحريف والتمويه .

ويشهد لذلك كلام الطاهر بن عاشور حيث يقول "كانوا لا يرضون إلا باتباعه ملتهم فهم لا يتبعون ملته ، ولما كان اتباع النبيِّ ﷺ ملتهم مستحيلاً كان رضاهم عنه كذلك ..

وقوله : { قل إن هدي الله هو الهدى } أمر بالجواب عما تضمنه قوله : { ولن ترضى } من خلاصة أقوال لهم يقتضي مضمونها أنهم لا يُرضيهم شيء مما يدعوهم النبي ﷺ إليه إلا أن يتبع ملتهم وأنهم يقولون إن ملتهم هدى فلا ضير عليه إن اتبعها ، مثل قولهم : { لن يدخل الجنة إلا من كان هُوداً أو نصارى } [البقرة : ١١١] وغير ذلك من التلون في الإعراض عن الدعوة...

ويجوز أن يكون المراد بهُدى الله :(الذي أنزله إليَّ هو الهدى) يعني أن القرآن هو الهدى إبطالاً لغرورهم بأنَّ ما هم عليه من الملة هو الهدى وأن ما خالفه ضلال . والمعنى أن القرآن هو الهدى وما أنتم عليه ليس من الهدى لأن أكثره من الباطل ."[xix]

"فإضافة الهدى إلى الله تشريف ، والقصر إضافي . وفيه تعريض بأن ما هم عليه يومئذ شيء حرفوه ووضعوه ، فيكون القصر إما حقيقياً ادعائياً بأن يراد هو الهدى الكامل في الهداية فهدى غيره من الكتب السماوية بالنسبة إلى هدى القرآن كلاَ هدى لأن هدى القرآن أعم وأكمل ..،وإما قصراً إضافياً أي هو الهدى دون ما أنتم عليه من ملة مبدلة مشوبة بضلالات ،...وقوله : { هو الهدى } الضمير ضمير فصل . والتعريف في الهدى تعريف الجنس الدال على الاستغراق ، ففيه طريقان من طرق الحصر: هما : ضمير الفصل ،وتعريف الجزأين ، وفي الجمع بينهما إفادة تحقيق معنى القصر وتأكيده للعناية به."[xx]

لأجل ذلك كلّه جاءت الآية على هذا النحو من تقديم (هدى الله) وتعريف الجزأين ، والفصل بالضمير ؛لإفادة القصر الإضافي – قصر الهدى الحقيقي الكامل على هدى الله تعالى وحده ، وهو دين الإسلام وشريعته بما يشتمل عليه من تشريع القبلة وسائر الشرائع كذلك ، ولا حاجة لتخصيص معنى هدى الله هنا بالقبلة حسب ماذهب إليه الكرماني ومن تبعه في ذلك ؛ بل الأولى ترك المعنى على إطلاقه شاملا الهداية كلّها للحقّ كلّه الذي لا يخرج عما أنزل على محمد ﷺ من الدين الحق ، وهو الإسلام – خلافا لما ذهب إليه اليهود والنصارى من أنّ ملّتهم هي الهدى الذي يجب اتباعه ؛ ولذا فهم لا يرضون عن النبي ﷺ حتى يتبع ملتهم اتباعا كاملا – وليس بمجرد موافقتهم في بعض الأمور كأمر القبلة مثلا – ومن ثم تبجحوا بأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، زاعمين بذلك أن ملتهم ودينهم هي وحدها الحق ؛ فكذبهم الله تعالى في ذلك وخالف كلامهم ببيان أن هدى الله وحده – الذي هو الإسلام[xxi] هو الهدى الكامل على الحقيقة.

أما الموضع الثاني في – سورة آل عمران – (قل إن الهدى هدى الله) فهو عكس سابقه فآية البقرة (قل إن هدى الله هو الهدى) قصر فيها الهدى على هدى الله ؛ فجعل هدى الله هو وحده الهدى الحقيقيّ ، وفي سورة آل عمران عكس ذلك حيث قصر هدى الله على الهدى الكامل ؛ أي إن هدى الله لا يكون إلا كاملا ، وقد أفاد ذلك تعريف الهدى بـ(أل) الجنسية المفيدة للحقيقة والماهية ، وفي ذلك تعريض بنقص دين أهل الكتاب الذين قالوا (آمنوا ...وجه النهار واكفروا آخره) ، وكذا قولهم (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) أي :(لا تصدقوا[xxii] ولا تطمئنوا[xxiii]) مما يدل على نقصان دينهم ؛ بله فساده.

ومما يحقق القصر في الموضع الأول : تقديم (هدى الله) ، ومما يحقق القصر في الموضع الثاني : تقديم (الهدى) ؛ فلأجل ذلك قدَّم ما قدَّم وأخَّر ما أخَّر ، والله تعالى أعلم.

النمط الثاني : تقديم الفضلة على أحد ركني الجملة :

ومن صوره :

تقدم الفضلة على ركن الجملة الفعلية (الفاعل)

تقدم الفضلة على ركن الجملة الاسمية (الخبر)

فمن المتقرر كالأصل أن يؤتى بركني الجملة أولا ثم ما يتبعهما من فضلات أو متعلقات كالظرف والجار والمجرور والحال ونحو ذلك ،سواء كان الركنان هما المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل ، ولكن قد يتقدم ما هو دون الركنين عليهما أو على أحدهما لغرض بلاغيٍّ،يتفرع في الغالب على غرض أساسيٍّ هو بيان الاهتمام بالمقدَّم.

فمما ورد من ذلك في كتاب الله : قوله تعالى :" **وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**"(القصص: ٢٠)

مع قوله تعالى :" **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ** " **(يس: ٢٠)**

وقد أجاب الإسكافي عن سبب هذا التقديم والتأخير فقال :" إن الفاعل في الموضعين لما كان نكرة فالمعنى : جاء جاءٍ ، وقد دل الفعل على جاءٍ ،ولا يكون الجائي من أقصى المدينة في الأعم الأغلب إلا رجلا ، وكان الذي يفاد المخاطب أن يعلم أنه جاء من مكان بعيد إلى مجتمع الناس في القرية ، وحيث لا يقرب من محاري القصة ، ولا يحضر موضع الدعوة ، ومشهد المعجزة ، فقدم ما تبكيت القوم به أعظم ، والتعجب منه أكثر ؛ فقال :" **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ** " ينصح لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم ،ولا ينصح لهم أقربوهم مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه ، ولم يشاهد من كلام الأنبياء ما يشاهدونه، فبعثهم على اتباع الرسل المبعوثين إليهم ، وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم.

وأما الآية الأولى من سورة القصص فإن المراد : جاء من لا يعرفه موسى من مكان لم يكن مجاورا لمكانه فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارهم به، فاستوى حكم الفاعل والمكان الذي جاء منه، فقدم ما أصله التقديم، وهو الفاعل ؛ إذ لم يكن هنا تبكيت القوم بكونه من أقصى المدينة كما كان ذلك في الآية المتقدمة."[xxiv]

علّل الإسكافي تقدم الجار والمجرور في سورة يس بأهمية إبراز البعد المكاني ،ولعله يلمح إلى بيان أثر هذا البعد قي إظهار المفارقة بين من يسعى لإجابة الرسل من أقصى المدينة ، وبين من أعرضوا عن دعوة الرسل الذين أتوهم في ديارهم ومحالّهم دون كلفة عليهم ولا عناء ،ونلاحظ أن الإسكافي قد علّل هنا للآية التي تقدَّم فيها الجار والمجرور على الفاعل الذي هو ركن الجملة ، أي اكتفى بالتعليل لما خرج عن الأصل ،ولم ير داعيا لتعليل ما وافق الأصل ، وهو آية القصص التي تقدم فيها الفاعل .

أما ابن جماعة فقد ألمح إلى فائدة أخرى في تقديم الجار والمجرور — من أقصى المدينة – وهي انتفاء التواطؤ بينه وبين الرسل ، أما الآية الأخرى فلم يعلل لتقدم الفاعل فيها باعتباره "جاء على الأصل في تقديم الفاعل على المفعول الفضلة "[xxv]

وبنحو التعليل السابق لتقدم الجار والمجرور جاء كلام الألوسي موضِّحا ما ألمح إليه الإسكافي من المفارقة التي أشرنا إليها ؛ فقال :"وجاء { مِنْ أَقْصَى المدينة } هنا مقدماً على { رَجُل } عكس ما جاء في القصص ،وجعله أبو حيان من التفنن في البلاغة .

وقال الخفاجي : قدم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقه التقديم بياناً لفضله إذ هداه الله تعالى مع بعده عنهم ،وإن بعده لم يمنعه عن ذلك ولذا عبر بالمدينة هنا بعد التعبير بالقرية إشارة إلى السعة وإن الله تعالى يهدي من يشاء سواء قرب أو بعد ، وقيل قدم للاهتمام حيث تضمن الإشارة إلى أن إنذارهم قد بلغ أقصى المدينة فيشعر بأنهم أتوا بالبلاغ المبين."[xxvi]

وقد زاد الطاهر بن عاشور فائدة أخرى لذلك التقديم للجار والمجرور ، واكتفى بالتعليل بموافقة الأصل في آية القصص فقال:"وفائدة ذكر أنه جاء من أقصى المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة ؛لأن قلب المدينة هو مسكن حكامها وأحبار اليهود وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليه

الرسل ، وعامة سكانها تبع لعظمائها لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف سكان أطراف المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكتراثٍ بـالآخرين لأن سـكان الأطـراف غالبهم عملة أنفسهم لقربهم من البدو .

وبهذا يظهر وجه تقديم { من أقصا المدينة } على { رجل } للاهتمام بالثناء على أهـل أقصى المدينة . وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط ، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة ، قال أبو تمام:

كانت هي الوسطَ المحميّ فاتصلت بها الحوادث حتى أصبحت طرَفا

وأما قوله تعالى في سورة القصص (٢٠) { وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى } فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحاً و لم يكـن داعياً للإيمان."[xxvii]

وقد وافق الكرماني الإسكافي في تعليله لآية يس بما لا يخرج عن مضمون كلامه ثم اجتهد لتعليل التقديم الموافق للأصل معوِّلا على مراعاة النظير السابق في السياق فقال :" خصت هذه السورة – القصص – بالتقديم لقوله قبله :(فوجد فيها رجلين يقتـتلان) ثم قـال (وجاء رجل) ،وخصت سورة يس بقوله :(وجاء من أقصى المدينة) لما جاء في التفسير أنه كان يعبد الله في جبل فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلا ." [xxviii]

والحق أن التعليل بموافقة الأصل حسب ما ذهب إليه الكرماني والطاهر بن عاشور وغيرهما غير كاف ؛ وذلك لاتساع الاختيار بين موافقته أو الخروج عنه ، فالحق أن كلا الأمـرين – موافقة الأصل ، والخروج عنه – بحاجة إلى التعليل من الناحية البلاغية الفنية ؛ وذلـك لأننا بصدد البحث عن أسرار الجمال القرآني ، ولسنا بصدد البحث عن موافقة الأصل أو القاعدة اللغوية .

كما أن التعليل – الذي ذهب إليه الكرماني بمراعاة النظير بأن يقال : إنه قـال :(رجـل) ليوافق (رجلين) غير مقبول ؛ وذلك لأنه يصلح أن يكون بيانا لعلة تكرر اللفظ ، لا بيانا لعلة التقديم ؛ وذلك لأن الآية الأخرى – آية يس – قد ورد فيها لفظ (رجل) مؤخرا و لم يسبقه في السياق لفظ (رجل) ولا (رجلين).

ومن ثم فلا بد من البحث عن علة أخرى غير ما ذكرا – أقصد الإسكافي والكرماني- ولعل تلك العلة هي ما ألمح إليها كلام ابن كثير ، وإن كان لم يشبعها بالتعليل والإيضاح الكافي ؛ حيث قال : "قَالَ تَعَالَى : " وجَاءَ رَجُل " وَصَفَهُ بِالرُّجُولِيَّة لأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيق فَسَلَكَ طَرِيقًا أَقْرَب مِنْ طَرِيق الَّذِينَ بُعِثُوا وَرَاءَهُ فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى فَقَالَ لَهُ يَا مُوسَى " إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِك " أَيْ يَتَشَاوَرُونَ فِيك" لِيَقْتُلُوك فَاخْرُجْ " أَيْ مِنْ الْبَلَد " إِنِّي لَك مِنْ النَّاصِحِينَ"[xxix].

والحق ما ألمح إليه كلام ابن كثير في هذا الموضع الذي جاء على الأصل من أن علّة التقديم ترجع – فضلا عن موافقة الأصل – إلى إبراز صفة الرجولية في هذا الرجل ؛ وقد علل تلك الرجولية بأمور يمكننا أن نستشفها من إشارته السابقة ، وهي:

ذكاؤه بمخالفة الطريق المرصود لكيلا يدركه الرصد فيحول بينه ، وبين الوصول لنبي الله ﷺ لنذارته وتحذيره وإعلامه بكيد قوم فرعون له.

سلوكه الطريق الأقرب ليسرع إلى موسى قبل أن يصل إليه خطر.

سبقه إلى موسى ﷺ وتمكنه من الوصول إليه قبل أن يحدق به خطر أعدائه ؛ فأنقذه بذلك من القتل.

إفشاؤه تآمر الملأ من قوم فرعون بقتل موسى لموسى ﷺ غير مبال ببطش فرعون وأذاه وعقوبته له التي لا تقلُّ عن القتل والعذاب الشديد إن هو علم بأمره .

إخلاصه النصح لموسى ﷺ راجيا ثواب الله ورضوانه ، كما يظهر من قوله له يَا مُوسَى " إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِك " أَيْ يَتَشَاوَرُونَ فِيك" لِيَقْتُلُوك فَاخْرُجْ " أَيْ مِنْ الْبَلَد :" إِنِّي لَك مِنْ النَّاصِحِينَ"

الصورة الثانية: تقدم الفضلة على ركن الجملة الاسمية (الخبر)

وذلك كما في قوله تعالى : " **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** "مع قوله تعالى :" **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** " في الآيات التالية ؛ حيث تقدم الجار والمجرور – متعلق الخبر (خبير) – على ركن الجملة – الخبر – في بعض هذه الآيات ، وجاء على الأصل في بعضها الآخر:

فورد قوله تعالى : " **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** " في المواضع التالية :

قوله تعالى :"إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (آل عمران :١٥٣)

مع قوله تعالى :" أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (التوبة :١٦)

مع قوله تعالى :" أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ"(المجادلة:١٣)

مع قوله تعالى :"يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ " (المنافقون :١١)

وورد قوله تعالى : " وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " في المواضع التالية :

في قوله تعالى :"وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" (البقرة:٢٣٤)

وقوله تعالى :"إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" (البقرة:٢٧١)

وقوله تعالى :"وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " (آل عمران :١٨٠)

وقوله تعالى :"وَمَا لَكُمْ أَلا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " (الحديد :١٠)

وقوله تعالى :"وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" (المجادلة :٣)

وقوله تعالى :"يأيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ "(المجادلة :١١)

وقوله تعالى :"زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" (التغابن:٨)

لقد بحثت في كتب المتشابه والتفسير في هذه الآيات فلم أجد ما يبين سبب اختلاف التقديم والتأخير بين جميع هذه الآيات ؛ بحيث يضع قاعدة لسرِّ هذا الاختلاف في جميع هذه المواضع ؛ بل وجدت أغلبهم يكتفي بتفسير الآية في موضعها دون التفات لما تشابه معها في بقية المواضع ؛ فمثلا يقول الألوسي في بعض المواضع :

"{ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } فلا تعملوا خلاف ما أمرتم به"[xxx]

ويقول في موضع آخر:"{ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } عالم بظاهره وباطنه ويجازيكم على حسبه فالكلام وعد ووعيد ، وفي الآيات من الدلالة على فضل السابقين المهاجرين والأنصار ما لا يخفى"[xxxi] ويقرر نحو ذلك في بقية المواضع [xxxii]

وقد تأملت هذه المواضع جميعها ، وحاولت أن أضع لسرِّ اختلاف التقديم والتأخير بينها ما يشبه القاعدة ، أو الظاهرة اللغوية العامة .

وذلك أننا إذا تأملنا جميع المواضع التي ورد فيها قوله تعالى : " **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** " نلاحظ أنها جميعا تتعلق بحدث ماض ، أو عمل كان منهم فيه مخالفة فيما مضى ،أو اعوجاج عن المنهج يرجع إلى داء باطن وعلَّة دفينة في النفوس ؛ ولذا يأتي مع هذه المواضع جميعها تقديم الخبر (**خبير**) الذي يدلُّ على سابق علم الله تعالى ، وخبرته بما يكنه العباد في نفوسهم ، وما تنطوي عليه ضمائرهم من الجبلة المنطوية على الشح والبخل والأثرة ونحو ذلك من العلل الدفينة.

فـ"الخبير بمعنى العليم لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة وسمي صاحبها خبيراً"[xxxiii] قال الألوسي :"{ واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } ظاهراً وباطناً"[xxxiv] وقال غيره :" وجملة { والله بما تعملون خبير } تذييل ، أي الله عليم بأعمالكم ومختلف نياتكم"[xxxv] وقال الرازي:"{ واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } أي عالم بنياتهم وأغراضهم مطلع عليها لا يخفى عليه منها شيء ، فيجب على الإنسان أن يبالغ في أمر النية ورعاية القلب"[xxxvi] وقال في موضع آخر :" يعني محيط بأعمالكم ونياتكم ."[xxxvii]

ففي الموضع الأول :تعلّق تذييل الآية هنا بما أكنّه هؤلاء الفارِّين من معركة أحد ؛ حيث أنّبهم الله تعالى على فعلتهم تلك بقوله :" إِذْ تُصْعِدُونَ أَيْ فِي الْجَبَل هَارِبِينَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ ..." وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَد " أَيْ وَأَنْتُمْ لَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَد مِنْ الدَّهَش وَالْخَوْف وَالرُّعْب " وَالرَّسُول يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ " أَيْ وَهُوَ قَدْ خَلَّفْتُمُوهُ وَرَاء ظُهُوركُمْ يَدْعُوكُمْ إِلَى تَرْك الْفِرَار مِنْ الْأَعْدَاء وَإِلَى الرَّجْعَة وَالْعَوْدَة وَالْكَرَّة : قَالَ السُّدِّيّ لَمَّا اشْتَدَّ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِأُحُد فَهَزَمُوهُمْ دَخَلَ بَعْضهمْ الْمَدِينَة وَانْطَلَقَ بَعْضهمْ إِلَى الْجَبَل فَوْق الصَّخْرَة فَقَامُوا عَلَيْهَا ؛فَجَعَلَ الرَّسُول صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو النَّاس " إِلَيَّ عِبَاد اللَّه ! إِلَيَّ عِبَاد اللَّه !" فَذَكَرَ اللَّه صُعُودهمْ إِلَى الْجَبَل ثُمَّ ذَكَرَ دُعَاء النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاهُمْ فَقَالَ " إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَد وَالرَّسُول يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ "[xxxviii]

وكان هذا الفرار بسبب ما استقر في نفوسهم من الميل إلى الدنيا ، ومحبة العاجلة ، وأثرها على الآخرة ، كما قال الله تعالى لهم في السياق نفسه :" **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ** ...الآية، **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** (آل عمران :١٥٣)

فكان سبب الهزيمة داء باطن في النفوس بتعلقها بمحبة الدنيا ؛ فمن ثم قدم (خبير) على(ما تعملون).

والموضع الثاني : يتعلق كذلك بأمر باطني وهو الإخلاص لجماعة المؤمنين ، دون موالاة أعدائهم والميل لهم والتداخل معهم ، وهو المستفاد من قوله :(وليجة) أي :"بطانةً وأولياء

يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم. وقال قتادة: وليجة خيانة. وقال الضحاك: خديعة. وقال عطاء: أولياء. وقال أبو عبيدة: ..وليجة الرجل: مَنْ يختص بدخيلة أمره دون الناس."[xxxix]

ولذا عقب ذلك بقوله : { وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }بتقديم الخبرة الدالة على العلم ببواطن نفوسهم.

وكذلك في الموضع الثالث : إشفاقهم أن يقدموا الصدقات عمل كان منهم قبل نزول الآية ، ليس له سبب إلا ما جبلت عليه النفوس من الشح ؛ وهو داء باطن لا يطلع عليه إلا الخبير بذات الصدور ؛ فمن ثم قدم (خبير).

وكذلك في الموضع الرابع :تحذير لهم أن يتلهوا بالأموال والأولاد وأمرهم أن ينفقوا في سبيل الله ويقدموا لآخرتهم "**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ** " ، ومعلوم أنه لا يمنعهم من الإنفاق والإقبال على الآخرة إلا شحُّ النفوس الباطن المتغلغل فيها ، وإيثار العاجلة على الآخرة ؛ فلذا قدم (خبير) للتأكيد على سابق خبرته سبحانه ، وعلمه الدائم بالبواطن ودواخل النفوس.

أما القسم الثاني من الآيات – وهي التي ذُيِّلت بقوله تعالى : " **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** " فهي كثيرة رغم كونها خارجة على الأصل ؛ حيث تقدم فيها المتعلق (**بِمَا تَعْمَلُونَ**)على الركن الخبر (**خبير**).

وإذا تأملنا هذه المواضع جميعها لاحظنا أنها جميعا تتعلّق بأعمال مطلوبة من العباد قد كلِّفوا بها ، لا يقع عملهم بها إلا بعد زمن التكليف ، ونزول الخطاب ، وقد يقع منهم مخالفة أو خروج عن منهج الله تعالى لأدواء النفوس وأمراضها ، وتظهر النكتة في تقديم الجار والمجرور (بما تعملون) في هذه المواضع – بما فيه من دلالة الفعل المضارع الذي يدل إما على الحال أو الاستقبال – أن العمل هو موضع الاهتمام لكونه يقع مستقبلا ؛ ومن ثم فهو مترقب ، وهو محل نظر ربِّ العالمين ورقابته واطلاعه ؛ فمن ثم قدم ليحصل للمخاطبين اعتناؤهم به ، ومراقبتهم لله في أدائه ، لا سيَّما إذا تعلّق الأمر بخبرة الله تعالى ،

وعميق علمه ببواطن النفوس ، وما تنويه من الالتزام بشرع الله تعالى في تلك الأعمال أو مخالفتها له.

ونستطيع أن نلمح اطراد هذا السبب في جميع تلك المواضع – وهو كونها أعمال وقع التكليف بها فلا تقع إلا بعد زمن الخطاب .

ففي قوله تعالى :"**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (البقرة:٢٣٤)

واضح أنه إنما هو تكليف يقع بعد زمن الخطاب ؛ بل فيه تربص وترقب لحين مجيء وقته ؛ ومن ثم فالاهتمام بهذا العمل المترقب أهم ؛ فلذا قدم (بما تعملون).

وقوله تعالى :"**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (البقرة:٢٧١)

يتعلق بأمر يقع بعد التكليف كذلك ؛ ومن ثم فالعمل هو موضع الاهتمام ؛ فلذا قدم .

وقوله تعالى :"**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** " (آل عمران :١٨٠)

جاء التعبير بالمضارع (يبخلون) وجاء الذم لذلك بما يفيد طلب ترك ذلك بعد زمن الخطاب ؛ ومن ثم قدم ما يدل على العمل للاهتمام به .

وقوله تعالى :"**وَمَا لَكُمْ أَلا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** " (الحديد :١٠)

حثهم على الإنفاق بقوله (وَمَا لَكُمْ أَلا تُنْفِقُوا) فهو يتعلق بأمر يقع بعد التكليف كذلك ؛ ومن ثم فالعمل هو موضع الاهتمام ؛ فلذا قدم .

قال الرازي :"والمعنى أنه تعالى لما وعد السابقين والمحسنين بالثواب فلا بد وأن يكون عالماً بالجزئيات ، وبجميع المعلومات ، حتى يمكنه إيصال الثواب إلى المستحقين ؛ إذ لو لم يكن

عالماً بهم وبأفعالهم على سبيل التفصيل ، لما أمكن الخروج عن عهدة الوعد بالتمام ، فلهذا السبب أتبع ذلك الوعد بقوله : { والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }"[xl]

وقوله تعالى :"وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (المجادلة :٣)

تحرير الرقبة تكليف كذلك لا يقع منهم إلا بعد زمن الخطاب؛ فلذا قدم العمل أيضا.

"وقوله : { والله بما تعملون خبير } تذييل لجملة { ذلكم توعظون به } ، أي والله عليم بجميع ما تعملونه من هذا التكفير وغيره."[xli]

وقوله تعالى :"يأيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ "(المجادلة :١١)

كلّها مطلوبات تقع بعد الخطاب كذلك .

وقوله تعالى :"زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (التغابن:٨)

هو طلب للإيمان بالله ورسوله واتباع النور الذي أنزل معه ، وهو تكليف لا يقع إلا مستقبلا كذلك ، وهو محل النظر والمراقبة والاهتمام ؛فلذا كان تقديمه في هذا الموضع والمواضع السابقة كلها كذلك .

"وجملة { والله بما تعملون خبير } تذييل لجملة { فآمنوا بالله ورسوله } يقتضي وعداً إنْ آمنوا ، ووعيداً إن لم يؤمنوا."[xlii]

النمط الثالث : تقديم بعض الفضلات على بعض :

وله صور :

تقديم بعض جمل الحال على بعض .

تقديم بعض الجمل المعطوفة بعضها على بعض .

تقديم بعض المفردات المعطوفة بعضها على بعض.

تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض

تقديم فضلة على أخرى غيرها في النوع.

الصورة الأولى: تقديم بعض جمل الحال على بعض.

قد تتشابه الآيتان في اشتمالهما على أكثر من حال، مع تقارب ألفاظهما؛ ولكن يكون بين الآيتين تقديم وتأخير لأحد الحالين على الأخرى تختلف فيه الآيتان، وذلك كما في قوله تعالى: "قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا" (مريم:٨)

وقوله "قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ" (آل عمران :٤٠)

"جملة "وقد بلغني" حالية، وجملة "وامرأتي عاقر" معطوفة على الحالية في محل نصب."[xliii]

فيا ترى ما السر في تقدم أحد الحالين على الأخرى بين الآيتين ؟

أورد الغرناطي الإشكال في اختلاف سياق الآيتين رغم اتحاد معناهما ثم أورد جوابه عن ذلك فقال :" والجواب عن ذلك والله أعلم: أن المعنى وإن كان فى السورتين واحدا وفى قضية واحدة ؛فإن مقاطع آي وسورة مريم وفواصلها استدعت ما يجرى على حكمها ويناسبها من لدن قوله تعالى فى افتتاح السورة:"ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا" الى قوله فى قصة عيسى عليه السلام:"والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا"، لم تخرج فاصلة منها عن هذا المقطع ولا عدل بها الى غيره ثم عادت الى ذلك من لدن قوله تعالى:"واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا" الى آخر السورة فاقتضت مناسبة آى هذه السورة ورود قصة زكريا عليه السلام على ما تقدم و لم يكن غير ذلك ليناسب ،أما آية آل عمران فلم يتقيد ما قبلها من الآي وما بعدها بمقطع مخصوص فجرت هي على مثل ذلك والله أعلم."[xliv]

فالغرناطي قد عزى الاختلاف بين الآيتين بالتقديم والتأخير إلى مراعاة الفاصلة ، لا غير ، أما الكرماني فقد زاد على ذلك بمراعاة السياق في أحد الموضعين – وهو سورة مريم – بالإضافة إلى مراعاة الفاصلة ، وهو أجود – بلا شك من الغرناطي في ذلك.

قال الكرماني :"قوله:"قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر "(آل عمران :٤٠) قدم في هذه السورة ذكر الكبر وأخر ذكر المرأة ، وقال في سورة مريم "وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا" فقدم ذكر المرأة لأن في مريم قد تقدم ذكر الكبر في قوله وهن العظم مني وتأخر ذكر المرأة في قوله:"وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا ، ثم أعاد ذكرها فأخر ذكر الكبر ليوافق عتيًّا ما بعده من الآيات وهي سويًّا ، عشيًّا ، و صبيًّا ."[xlv] ٣٢

وذهب ابن جماعة إلى نحو ما ذهب إليه الكرماني وعدَّ ذلك :"تفننا في الفصاحة"[xlvi]

أما الشيخ زكريا الأنصاري فهو وإن وافق من سبقه في التعليل لسورة مريم برعاية الفاصلة ؛ فإنه قد انفرد عنهم بتعليل التقديم في آل عمران بتقديم ذكر الذكر على الأنثى "لأن الذكر مقدم على الأنثى فقدم كبره هنا ، وأخَّر ثمَّ لتتوافق الفواصل."[xlvii]

ومع وجاهة ما ذكره الكرماني ، واعتبار ما ذكره الأنصاري ؛فإني أرى أنه يمكن إضافة لذلك اعتبار ما ورد عن سيبويه[xlviii] في قاعدة التقديم حيث جعله كالأصل فيه ؛ وهو أن التقديم يكون للعناية والاهتمام ، وإذا اعتبرنا ذلك في هذا المقام ، وهو مقام استعطاف زكريا لربِّه أن يرزقه الولد ، مع بيان فاقته وحاجته البالغة إلى عنايته ؛ وذلك لانقطاع كلِّ الأسباب الممكنة للإنجاب ، تلك الأسباب التي تتلخص في سببين اثنين – هما صلاحية الزوج ، وصلاحية الزوجة ؛ ولما كان كلا الأمرين لا يقلُّ أهمية عن الآخر – وله اعتباره البالغ في عملية الإنجاب بحيث لا يستغنى عن واحد منهما – جاء التقديم والتأخير في الآيتين ؛ فقدَّم هذا مرَّة ، وقدّم هذا مرَّة ، ويمكن بعد ذلك أن نعلِّل لاختصاص سورة مريم بتقديم سبب عقم المرأة بما علَّل به الكرماني ؛ وهو أن ذلك كان لسبق تقدم ذكر الكبر في قوله (وهن العظم مني) ، وأن نعلل لاختصاص سورة آل عمران بتقديم كبر يعقوب بما علَّله به الأنصاري من اعتبار تقديم الرجل على المرأة ، والله تعالى أعلم.

الصورة الثانية : تقديم بعض الجمل المعطوفة بعضها على بعض .

قال تعالى :"وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ "(البقرة : ٤٨)

وقال :"وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ " (البقرة :١٢٣)

نلاحظ هنا تشابه الآيتين في أغلب ألفاظهما مع اختلافهما بالتقديم والتأخير في الجمل التي وقعت نعوتا لذلك اليوم .

وذلك أن "(يوما) مفعول به ، وجملة "لا تجزي نفس" نعت لـ "يوم"، والأصل: لا تجزي فيه، ثم حُذف. "شيئا": نائب مفعول مطلق، أي: لا تجزي جزاء قليلا ولا كثيرا. جملة "ولا هم ينصرون" معطوفة على جملة "ولا يؤخذ منها عدل" في محل نصب."[xlix]

وهاتان الآيتان قد وقف عندهما كثير من المفسرين ،وممن صنفوا في متشابه القرآن متسائلين عن سرِّ الاختلاف بينهما بالتقديم والتأخير ؛ حيث قدم جملة النعت النافية لقبول الشفاعة في الآية الأولى على النافية لقبول العدل ، وعكس ذلك في الآية الثانية .

وقد حاول الكرماني الإجابة عن سرّ هذا التقديم والتأخير في الموضعين ؛ فقال في الموضع الأول :"قدم الشفاعة في هذه الآية وأخر العدل ، وقدم العدل في الآية الأخرى من هذه السورة وأخر الشفاعة، وإنما قدم الشفاعة قطعا لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم ، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله.

وأخرها في الآية الأخرى ؛لأن التقدير في الآيتين معا لا يقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة لأن النفع بعد القبول ، وقدم العدل في الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدما فيها "[l]

ثم عاد للكلام عنهما في الموضع الثاني فقال :"هذه الآية والتي قبلها متكررتان وإنما كررت لأن كل واحدة منهما صادفت معصية تقتضي تنبيها ووعظا ؛لأن كل واحدة وقعت في غير وقت الأخرى والمعصية الأولى "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم"(البقرة : ٤٤) والثانية :"ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم"[li](البقرة: ١٢٠)

والحق أن كلام الكرماني – في الموضعين ليس كلُّه مقنعا ؛ فلئن قبلنا كلامه في أنه:" إنما قدم الشفاعة قطعا لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم ، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله" – أقول إن قبلنا ذلك – فإنا لا نقبل تعليله لتأخير الشفاعة في الآية الأخرى .

فقوله :" قدم العدل في الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدما فيها" غير مقبول ؛ لأنه لا تلازم بين ذكر العدل والقبول بدليل أنه جاء في الآية الأخرى "**ولا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ**" ؛ فضلا عن ذلك إن قلنا :(إن العدل والقبول متلازمان) فقبول العدل لا يلزم منه قبول الشفاعة – حيث يرى أنه قدم قبول العدل لأن الشفاعة لا بد أن يسبقها القبول.

وكذلك إجابته في الموضع الثاني غير مقنعة كذلك ، وهي جعله تكرر الآيتين " لأن كل واحدة منهما صادفت معصية تقتضي تنبيها ووعظا "؛ فهذا الكلام غير مقنع ؛ لأن جرائم بني إسرائيل المسرودة في سورة البقرة بين هاتين الآيتين عديدة يصعب حصرها من تجرؤهم على نبيهم ، واستطالتهم عليه ، وسوء أدبهم معه ، وتلكؤهم في تنفيذ أوامره ، والاستجابة لأمر الله ، مع كثرة سؤالهم وتعنتهم في قصة ذبح البقرة ، وغير ذلك .

أما الرازي فقد جعل "الجواب : أن من كان ميله إلى حبِّ المال أشدَّ من ميله إلى علوِّ النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية ،ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة ، ففائدة تغيير الترتيب ، الإشارة إلى هذين الصنفين"[lii]

وبنحو هذا أجاب الشيخ زكريا الأنصاري.[liii]

فنزل الآيتين على صنفين من الشافعين ؛ وهذا أحسن من جواب الكرماني السابق .

أما الغرناطي فقد نظر نظرة أعمق في سياق الآيتين فقال:"وجه ذلك والله أعلم انه لما تقدم فى الآية الأولى قوله تعالى:"أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم" والمأمور بالبر قد يأخذ به ويتمسك بموجبه فيسلم من العصيان وتكون فى ذلك نجاته ،واذا أمكن هذا فقد وقع الاهتداء بأمر هؤلاء الذين قيل لهم:"أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم" فهو مظنة عندهم لرجائهم أن ينفع عند مشاهدة الجزاء الإحسانى للمأمورين بالبرِّ حين قبلوا وامتثلوا أخذاً بظاهر حال الآمرين وان كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون."[liv]

فهو يوجه بذلك مناسبة تقدم الشفاعة في هذا الموضع بأنه قد سبقها ما يرشح لاتكالهم عليه – في أفهامهم السقيمة ، وهو الأمر بالبرِّ وامتثال الآمرين له – حسب ظاهر الأمر – أما الموضع الثاني فلم يسبقه ما يشير لشيء من ذلك ؛ فلذا لم تقدم الشفاعة فيه .

وهذا الكلام لا يبعد كثيرا عما علل به الكرماني ، وإن كان يدل على تعمق صاحبه في سياق الآيات بصورة أكبر.

وقد أجاب الإسكافي عن ترتيب هذه الجمل بكلام جميل نفيس ، رأيت أن أذكره كاملا لنفاسته فقال :"الوجه في الأولى : أنه لما قال :" **لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا** "بمعنى لا يغني أحد عن أحد فيما يلزمه من العقاب ، ولا يكفر سيآته ما له من الثواب ، وهو كقوله عز من قائل :" **وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا**"(لقمان : ٣٣) ، فهذه الأشياء التي ذكر – في هذه الآية – امتناع وقوعها في الآخرة أربعة أنواع تنفى بها المكاره ، وتتداوى بها الشدائد ألا ترى العرب إذا دفع أحدهم إلى كريهة ، وارتهنت نفسه بعظيمة ، وحاولت أعزته دفاع ذلك عنه ، وتخليصه منه بدأت بما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية ، فذبت عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته وجلده فإن رأى من لا قبل له بممانعته ، ولا يد له بمدافعته عاد بوجوه الضراعة ، وصنوف المسألة والشفاعة ، فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة ، فإن لم تغن عنه الحالتان ، ولم تنجه الخلتان من الخشونة واللين لم يبق بعدهما إلا فداء الشيء بمثله ، وفكّه من الأسر بعدله إما بمال وإما بغيره .

فإن لم تغن عنه هذه الثلاثة في العاجلة تعلل بما يرجوه من نصر في الآجلة ....فأخبر الله تعالى أن ما يغني في هذه الدنيا عن المجرمين ، وترتب هذه المراتب بين العالمين ، لا يغني منه شيء في الآخرة عن الظالمين."[lv]

ورغم هذا التحليل الرائع لبيان مناسبة الترتيب في الآية الأولى ؛ فإن بيانه لمناسبة اختلاف الترتيب في الآية الثانية لم يكن مقنعا للوقوف على علة الاختلاف بين الآيتين حيث جعل تقديم العدل وتأخير الشفاعة فيه ليفيد أن "معنى : (**لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا**) لا تغني عنها بفداء ..ويكون بعد ذلك (ولا تنفعها شفاعة)معناه : ولا تخفف مسألة من عذابها ، ولا ينقص شفيع من عقابها."[lvi]

والحق أن هذا الكلام منه غير مقنع في هذه الآية الثانية ؛لأنه لم يبين لنا ما الذي اقتضى هذه المخالفة في المعنى بين الموضعين مع اتحاد الألفاظ (العدل – الشفاعة) فضلا عن أن ما ذكره في معنى العدل والشفاعة في الآية الثانية ليس مخالفا في الحقيقة لما ذكره من معناهما في الآية الأولى بل هو من مقتضاه ولوازمه.

غير أن أمثل ما رأيته من كلام المصنفين في المتشابه في هاتين الآيتين : كلام ابن جماعة . قال ابن جماعة في جوابه عن سر التقديم والتأخير في الآيتين :"إن الضمير في (منها) راجع في الأولى إلى النفس الأولى ، وفي الثانية راجع إلى النفس الثانية ، كأنه يبين في الآية الأولى أن النفس الشافعة الجازية عن غيرها لا تقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ؛ ولأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها .

ويبين في الآية الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها ، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها ..؛ فلذلك كله قال في الأولى :(ولا يقبل منها شفاعة) وفي الثانية : (ولا تنفعها شفاعة) ؛ لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع ، وإنما تنفع المشفوع له ."[lvii]

وهذا – في رأيي – أحسن ما قيل في توجيه متشابه التقديم والتأخير في الآيتين ؛ وذلك أنه بين أن ثمة نفسين : نفسا جازية شافعة ، ونفسا مأخوذة بجريرتها تبحث عمن يجزي عنها ، أو يشفع لها ،أو يفديها ، أو يحاول نصرها .

وجعل الكلام في الموضع الأول عن النفس الجازية الشافعة ، وفي الموضع الثاني عن النفس المأخوذة بجرمها.

وبيَّن سرَّ التقديم والتأخير في الموضعين وهو ما بين مناسبة التقديم والتأخير لكل موضع مما نيط به ، وكشف في الوقت نفسه عن صحة ما حمل عليه الكلام من معنى النفس في الموضعين .

فبين أن تقديم الشفاعة أنسب في الآية الأولى ؛ حيث الحديث عن النفس الجازية الشافعة "لأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها" ؛ وذلك صحيح لأن الشافع يقدم في الشفاعة ماهو أيسر عليه ، وأقل كلفة ، ولا شك أن الشفاعة بالجاه والقول أيسر منها بالعدل وهو الفداء بالمال أو النفس ونحوهما.

وبين في الآية الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل أي فداء عن نفسها ، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها ..؛ فلذلك كله قال في الأولى :(ولا يقبل منها شفاعة) وفي الثانية : (ولا تنفعها شفاعة) ؛ لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع ، وإنما تنفع المشفوع له .

لكن بقي أن نقول :إنه مع اختلاف المقصود بالنفس في كل ، وما يعود على كل ؛ فلم يختلف سياق الآيتين بين النفس الجازية ، والنفس المأخوذة بجرمها في قوله (لا تجزي) وقوله : (ولا هم ينصرون) ؛ وذلك لأن كلا من النفسين منفي عنهما ذلك ، وهما فيه سواء في ذلك اليوم ، كلاهما : لا يجزي ، وكلاهما لا ينصر.

ومن متشابه التقديم والتأخير في الجمل المعطوفة كذلك :

قوله تعالى : "لِلَّه مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "(٢٨٤)

مع قوله تعالى:" لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ "(آل عمران :١٢٩)

مع قوله تعالى:" وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ "(المائدة : ١٨)

مع قوله تعالى:"وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "(المائدة :٤٠)

وقد بين الكرماني وجه التشابه والاختلاف بين هذه الآيات وأجاب عنها بما لا يحتاج إلى مزيد فقال :" قوله :"فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء"[lviii] يغفر مقدم في هذه السورة

وغيرها إلا في المائدة فإن فيها "يعذب من يشاء ويغفر" (المائدة :٤٠) ؛لأنها نـزلت بعدها في حق السارق والسارقة وعذابهما يقع في الدنيا" [lix]

وما ذكره الكرماني إجمالا قد ذكره الغرناطي تفصيلا ؛حيث أطال النفس في علة التقـديم والتأخير في هذا الموضع فقال :" قوله تعالى:"فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء" وفى سورة آل عمران:...وفى المائدة:.. وفى سورة الفتح:.. فورد فى هذه الآي الأربع تقديم الغفـران وتأخير التعذيب ،وورد فى سورة المائدة:"ألم تعلم أن الله له ملـك الـسماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء" بتقديم التعذيب وتأخير المغفرة على خلاف مـا ورد فى الآي الأربع المذكورة...والجواب عنه ،والله أعلم :أن هذه الآية لما تقدمها قوله تعـالى:" **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الـدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** (المائدة: ٣٤) " ثم بعد ذلك قوله تعـالى:" **وَالـسَّارِقُ وَالـسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩)** "، فقـدم فى هـاتين القصتين من خبر المحاربين والسارقين ذكر تعذيبهم جزاء على فعلهم ثم ذكر المغفرة لهم أن تابوا وأتبع ذلك بقوله تعالى:" **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَـنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)**" وبناؤها على ما تقدمها قبلـها ويليها كما تبين ؛فقدم ذكر العذاب على المغفرة لمناسبته لما اتصلت به وبقيت عليه."[lx]

وهذا كلام سديد أجمله الكرماني ، وفصله الغرناطي تفصيلا حسنا يقوم علـى مراعـاة المناسبة بين الآيات والسياق والمقام الذي وردت فيه ؛ فحيث وردت في سياق الترغيب – في رحمة الله في الآخرة – قدمت المغفرة على العذاب ؛ وحيث وردت في عقوبة الـسارق وزجره – في الدنيا – قدم التعذيب على المغفرة لغرض الزجر والردع .

الصورة الثالثة: تقديم بعض المفردات المعطوفة بعضها على بعض.

ومنه قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ"(البقرة:٦٢)

مع قوله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ "[lxi] (المائدة :٦٩)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ " (المائدة :٦٩)

مع قوله تعالى:"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " (الحج :١٧)

وقد أورد الإسكافي في سر التقديم والتأخير في هذه الآيات كلاما بديعا مفصلا فقال في آية البقرة: "المعنى :إن الذين آمنوا بكتب الله المتقدمة مثل صحف إبراهيم ، والذين آمنوا بما نطقت به التوراة ، وهم اليهود ، والذين آمنوا بما أتى به الإنجيل ، وهم النصاري ، فهذا ترتيب على حسب ما ترتب عليه تنزيل الله تعالى كتبه ؛ فصحف إبراهيم عليه السلام قبل التوراة المنزلة على موسى عليه السلام ، والتوراة قبل الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام ، فرتبهم الله عز وجل في هذه الآية على ما رتبهم عليه في بعثة الرسالة.

ثم أتى بلفظ (الصابئين) وهو الذين لا يثبتون على دين ، ويتنقلون من ملة إلى ملة ، ولا كتاب لهم ، كما للطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في قوله :" أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ" (الأنعام :١٥٦) فوجب أن يكونوا متأخرين عن أهل الكتاب.

وأما بعد هذا الترتيب فترتيبهم في سورة المائدة ، وتقديم (الصابئين) على(النصارى) ورفعه هنا ونصبه هناك ترتيب ثان لهم.

فالأول على ترتيب الكتب ، والثاني على ترتيب الأزمنة ؛ لأن الصابئين – وإن كانوا متأخرين عن النصارى ، بأنه لا كتاب لهم – فإنهم متقدمون عليهم بكونهم قبلهم ؛ لأنهم كانوا قبل عيسى عليه السلام.

فرفع (الصابئون) ونوى به التأخير عن مكانه ؛ كأنه قال بعد ما أتى بخبر :إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والصابئون هذه حالهم أيضا ، وهذا مذهب سيبويه ... وإنما قدم في اللفظ وأخر في النية ؛ لأن التقديم الحقيقي التقديم لكتب الله المنـــزلة على الأنبياء عليهم السلام ، فإذا فعل ذلك في الآية الأولى – وكان هنا تقديم آخر بتقديم الزمان ، وجاءت آية أخرى قدم فيها هـــذا الاسم على ما أخر عنه في الآية التي قبل ثم أقيمت في لفظه أمارة تدل على تـــأخره عـــن مكانه – كان هذا دليلا على أن هذا الترتيب بالأزمنة ، وأن النية به التـــأخير والترتيـــب بالكتب المنـــزلة.

وأما الترتيب الثالث في سورة الحج فترتيب الأزمنة الذي لا نية للتأخير معـــه ؛ لأنـــه لم يقصد في هذا المكان أهل الكتب ؛ إذ كان أكثر من ذكر ممن لا كتـــاب لهـــم ، وهـــم الصابئون والمجوس والذين أشركوا عبدة الأوثان ، فهذه ثلاث طوائف ، وأهل الكتـــاب طائفتان.

فلما لم يكن القصد في الأغلب الأكثر من المذكورين ترتيبهم بالكتـــب رتِّبـــوا بالأزمنـــة ،وأخروا "الذين أشركوا"؛ لأنهم وإن تقدمت لهم أزمنة وكانوا في عهد أكثر الأنبياء الذين تقدمت بعثتهم – صلوات الله عليهم – ؛ فإنهم كانوا أكثر ممن مُني رســـول الله بهـــم ، وصلي بجهادهم ، وكأنهم لما كانوا موجودين في عصر النبي (كانوا أهل زمانـــه ، وهـــذا الزمان متأخر عن أزمنة الفرق الذين قدِّم ذكرهم "[lxii]

وقد أوجز الكرماني وغيره[lxiii] كلام الإسكافي مع حسن بيان وإيضاح فقال :" قولـــه إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والـــصابئين " (البقـــرة:٦٢) ، وقـــال في الحـــج "والصابئين والنصارى "(الحج:١٧) ، وقال في (المائدة:٦٩) "والصابئون والنصارى" ؛ لأن النصارى مقدمون على الصابئين في الرتبة ؛لأنهم أهل كتاب فقـــدمهم في البقـــرة، و(الصابئون) مقدمون على النصارى في الزمان ؛لأنهم كانوا قبلهم فقـــدمهم في الحـــج وراعى في المائدة بين المعنيين ، وقدمهم في اللفظ وأخرهم في التقـــدير ؛لأن تقـــديره (والصابئون كذلك) ، قال الشاعر :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإني وقيار بها لغريب ...

أراد :إني لغريب وقيار كذلك

فتأمل فيها وفي أمثالها يظهر لك إعجاز القرآن ." [lxiv]

فنلاحظ هنا أن الكرماني قد كشف عن سرٍّ تقديم (الصابئون) في آية المائدة ، وعن سرٍّ مجيئها مرفوعة مقطوعة عن التبعية لما قبلها ؛ لكونها مقدمة على نية التأخير رعاية لوجهي الترتيب الممكنين ، وهما الترتيب بحسب الرتبة أو بحسب الزمن ، بينما نلاحظ أن الإسكافي قد أطال الكلام دون إيضاح كاف لهذا المعنى حيث نلاحظ تعسف عباراته في هذا الموضع ، من لدن قوله :" وإنما قدم في اللفظ وأخر في النية ؛ لأن التقديم الحقيقي التقديم لكتب الله المنزلة ..، وجاءت آية أخرى قدم فيها هذا الاسم على ما أخر عنه في الآية التي قبل ثم أقيمت في لفظه أمارة تدل على تأخره عن مكانه – كان هذا دليلا على أن هذا الترتيب بالأزمنة ، وأن النية به التأخير والترتيب بالكتب المنزلة."

وعلى كلٍّ فإن له فضل السبق والإلماح إلى هذا المعنى على طول عبارته فيه .

غير أنه قد بقي لنا أن نؤيد ما ذهب إليه هؤلاء المفسرون بالنظر في دلالة السياق في كلٍّ واحدة من هذه الآيات ؛ فنحن هنا أمام ثلاث آيات : سلكت كل واحدة منهجا في ترتيب هذه الطوائف غير ما سلكته الأخرى ؛ فنحن بذلك أمام ثلاثة مناهج في الترتيب:

المنهج الأول :في آية البقرة حيث سلكت منهج الترتيب بحسب الرتبة والمنزلة والفضل حيث بدأت بالذين آمنوا لفضلهم وشرفهم في كل زمان ومكان ، وثنت باليهود والنصارى ؛ لكونهم أهل كتاب ، وثلّثت بالصابئين لكونهم قوما لا كتاب لهم .

ويؤيد كون الترتيب هنا على الرتبة والمنزلة : تفرد هذه الآية (آية البقرة) ببيان الأجر والمنزلة عند الله كما يستفاد من قوله تعالى :" **لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ** " وهو ما لم يذكر في الآيتين الأخريين .

المنهج الثاني :في آية الحج حيث سلكت منهج الترتيب بحسب التقدم في الزمن ؛ فمن ثم قدمت الصابئين على النصارى ؛ لأنهم أسبق منهم زمنا ؛ فجعلتهم بين اليهود والنصاري ؛ لأن هذه رتبتهم الزمانية ، وأخرت المجوس لتأخرِّهم ، وألحت بالذين أشركوا ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ – وهو آخر الأنبياء – قد مُني بهم " وصلي بجهادهم ، وكأنهم لما كانوا موجودين في عصر النبي "كانوا أهل زمانه ، وهذا الزمان متأخر عن أزمنة الفرق الذين قدِّم ذكرهم"[lxv]

المنهج الثالث :في آية المائدة حيث سلكت منهجا فريدا في الترتيب يجمع بين الترتيب بحسب التقدم في الزمن ،والترتيب بحسب الرتبة والمنزلة في الوقت نفسه ؛ فمن ثم قدم (الصابئون) ولكنها جاءت مرفوعة مقطوعة عن التبعية للمعطوف على اسم إن المنصوب ، مقدمة على التابع المنصوب (النصارى) الذي كان حقه التقديم لإكمال نسق المنصوبات المعطوفة على اسم إن ؛ لتأتي (الصابئون) في النهاية ليكون التقدير (والصابئون كذلك ؛ لكنها لم تؤخر ، ولم تقدم معطوفة منصوبة ، وإنما قدمت مرفوعة مقطوعة ؛ ليكون ذلك علامة على أنها إنما جيء بها كذلك مقدمة على نية التأخير ؛ لتحقق بذلك صفتي التقديم والتأخير في وقت واحد ؛ إشارة إلى المنهجين في الترتيب ؛ لأنها مستحقة للتقديم من حيث الرتبة الزمانية ، ومستحقة للتأخير – في الوقت نفسه – من حيث الرتبة الكتابية ، وهذا من أدق وجوه إعجاز القرآن وأعجبها.

وتأتي دلالة السياق لتبين لنا سرَّ مجيء هذا الموضع بالذات في سورة المائدة على هذا النحو من الترتيب ؛ حيث نلاحظ أن الآية السابقة على هذه الآية تجرد أهل الكتاب من منزلتهم ومكانتهم إذا لم يعملوا بما أوتوا من الكتب – فضلا عما أنزل على محمد ﷺ ، قال تعالى :" **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى .....الآية**

ثم أتبع الآية بما يدل على وقوع الكفر من النصارى في قوله : "**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ**

أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (المائدة:٧٦)

ومن ثم فلا مزيَّة للنصارى – حيث لم يقيموا كتابهم و لم يعملوا به – كي يقدموا على الصابئين ، وهم قوم لا يشركون بالله شيئا – في أرجح الأقوال[lxvi] – وإن لم يكونوا أهل كتاب .

ومن ثم قدَّم عليهم (الصابئون) مرفوعة مقطوعة على نية التأخير ، وكأنه يقول لهم : (إن لم تقيموا كتابكم – وما أنزل إليكم من ربكم وتعملوا به – فالصابئون أولى بالتقديم منكم ، وإن رجعتم لرشدكم وآمنتم بمقتضى ما أنزل الله من الكتب فأنتم أحق بالتقديم منهم ؛ لأنكم أهل كتاب منزل من السماء تقيمونه وتعملون به و(الصابئون) لا كتاب لهم.

ومن ثم يتبين لنا وجه الإعجاز في هذا الموضع العجيب من متشابه التقديم والتأخير في هذا الكتاب العزيز.

ومن ذلك أيضا (من تقديم بعض المفردات المعطوفة بعضها على بعض):

قوله تعالى :"وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (الأنعام:٣٢)

وقوله تعالى :"وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ " (الأنعام:٧٠)

وقوله تعالى :"إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ" (محمد:٣٦)

وقوله تعالى :"اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ" (الحديد:٢٠)

وقوله تعالى :"وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ " (الأعراف ٥١)

وقوله تعالى :"وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت: ٦٤)

وقد اجتهد المفسرون في بيان سرِّ التقديم والتأخير بين هذه الآيات فقال الرازي :" قال هناك : { إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ } وقال ههنا : { إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ } (الأعراف٥١) فنقول لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة ، ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد ، وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها ، اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلاً ، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو ."[lxvii]

وقد تبعه في ذلك ابن عادل في اللباب ، و لم يزد عليه.[lxviii]

وكلامهما في هذا الموضع – إن قبل في هذين الموضعين – غير شامل لكل المواضع.

وقد حاول الطاهر بن عاشور التوجيه البلاغي لهذا التقديم عند آية العنكبوت فقال:"وقد زادت هذه الآية بتوجيه اسم الإشارة إلى الحياة وهي إشارة تحقير وقلة اكتراث كقول قيس بن الخطيم مشيرا إلى الموت :

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة ... لنفسي إلا قد قضيت قضاءها و لم توجه الإشارة إلى الحياة في سورة الأنعام . ووجه ذلك أن هذه الآية لم يتقدم فيها ما يقتضي تحقير الحياة فجيء باسم الإشارة لإفادة تحقيرها وأما آية سورة الأنعام فتقدم قوله (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) فذكر لهم في تلك الآية ما سيظهر لهم إذا جاءتهم الساعة من ذهاب حياتهم الدنيا سدى .

وأما تقديم ذكر اللهو هنا وذكر اللعب في سورة الأنعام فلأن آية سورة الأنعام لم تشتمل على اسم إشارة يقصد منه تحقير الحياة الدنيا فكان الابتداء بأنها لعب مشيرا إلى تحقيرها لأن اللعب أعرق في قلة الجدوى من اللهو."[lxix]

وينتقض عليه هذا الكلام بأن آية الأعراف لم تشتمل كذلك على اسم الإشارة ؛ ومع ذلك فلم تبدأ باللهو.

أما الكرماني فقد كان أكثر دقة وشمولية حيث ذهب إلى أنه "إنما قدم اللعب في الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا ،واللهو زمانه الشباب ، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب يبينه ما ذكر في الحديد:"اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب" كلعب الصبيان ،ولهو كلهو الشبان ،وزينة كزينة النسوان، وتفاخر كتفاخر الإخوان ،وتكاثر كتكاثر السلطان...

وقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة،فذكر على ترتيب ما انقضى،وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين ،وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا،وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ، أي الحياة التي لا أمد لها ولا نهاية لأبدها ، بدأ بذكر اللهو لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا."[lxx]

فالكرماني قد بيَّن سرَّ تقديم اللعب في الجملة بما يشبه مونه الأصل الذي لا يحتاج إلى تبرير ؛وذلك لأن الأصل البدء باللعب ؛ لأنه زمن الصبا ، وهو أسبق من اللهو الذي يكون في زمن الشباب ، واستشهد لذلك بآية الحديد التي رأى أنها قد جاءت مقسمة على أزمان الدنيا و أحوالها.

ثم فسر تقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة،فذكر على ترتيب ما انقضى ؛ أي فسِّر على آخر عهدهم بالدنيا قبل القيامة ، وهو اللهو الذي أوردهم المهالك.

أما العنكبوت فلما كان المقصد هو مقارنة الدنيا بالآخرة وبيان أنها سريعة الانقضاء قليلة البقاء ، بدأ بذكر اللهو لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا.

أما الإسكافي فقد اقتصر على موضعين لكل نوع ؛ فذكر في تقدم اللعب آيتي الأنعام والحديد ، وفي تقدم اللهو آيتي الأعراف والعنكبوت .

وذهب في تعليل تقدم اللعب في الأنعام بأنه ورد في جماعة من الكفار كانوا يستهزئون بآيات الله ويتخذونها هزوا ولعبا مستشهدا بما ورد من قوله تعالى:" **وَقَدْ نَزلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (النساء: ١٤٠)**، قال :"فهؤلاء قوم حضروا النبي ﷺ ، وسمعوا القرآن ، وعبثوا عند سماعه ، ولعبوا بآياته ...فهؤلاء لما فعلوا عند سماع القرآن من الاستهزاء والعبث أطلق على فعلهم : اسم اللعب ."[lxxi]

وعلل لترتيب آية الحديد بنحو ما علل به الكرماني من بعده.

وعلل لترتيب آية الأعراف في تقديم اللهو بأنها إنما وردت في عامة الكفار "الذين شغلتهم الحياة الدنيا وحلاوتها ، والولاية وغباوتها . واستجلاء ما مرنت عليه طباعها ، وهذا هو اللهو."[lxxii]

وذهب في في بيان سرِّ ترتيب آية العنكبوت إلى نحو ما ذكره الكرماني من بعده مع شيء من التفصيل والتطويل.

وقد أطال الغرناطي في هذا الموضع بكلام طويل لا يخرج عما ذكره الإسكافي وما نقلناه عن الكرماني فلم نشأ التطويل بذكر شيء منه.

وما قدمناه من كلام كلٍّ من الإسكافي والكرماني يعد تعليلا وافيا وشاملا لبيان سرِّ التقديم والتأخير في هذه الآيات .

الصورة الرابعة : تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض.

سبق أن عرضنا لتقدم متعلقات الفعل على ركن الجملة ، وبقي أن نشير إلى أن التقديم الفني للمتعلقات لا يقتصر على ذلك ؛ "بل هو يشمل كذلك تقديم بعضها على بعض ؛ فترتيب تلك المتعلقات في الأساليب الفنية هو الترتيب الفني الذي يكون لكل لفظة من ألفاظه – في موضعها – وظيفتها الخاصة التي يفرضها السياق ، ويقتضيها الغرض."[lxxiii]

فمن ذلك :

قوله تعالى :" فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ" (عبس:٣٧)

وقوله :" يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُئْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ"(المعارج:١٤)

قال الرازي :"المراد أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم ، فإنه يفر منهم في دار الآخرة ، ذكروا في فائدة الترتيب كأنه قيل : { يوم يفر المرء من أخيه } بل من أبويه فإنهما أقرب من الأخوين بل من الصاحبة والولد ، لأن تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالأبوين ."[lxxiv]

فالمراد إذن أن ترتيب الآية قد ورد على الترقّي من الأدنى إلى الأعلى ، على سبيل الإضراب عن الأدنى إلى الأعلى.

"فالآيات مسوقة لتصوير هول الموقف في يوم القيامة ، واضطرار الإنسان إزاء هذا الهول إلى التخلّي عن أهله والفرار من أحبابه وعشيرته ، وقد رتبت الآيات هؤلاء الذين يفر منهم ترتيبا يوحي بتصاعد الإحساس بهول هذا اليوم وكربه ؛ فالمكروب يفر من أخيه قبل أن يفر من أبويه ، فإذا زاد عليه الكرب فرَّ من الأبوين ، وبقي مستمسكا بالصاحبة والبنين ؛ فإذا تضاعف عليه الهول فرَّ من الصاحبة ، وبقي متعلّقا بولده ، حتى إذا بلغ به الكرب ذروته نسي فلذات كبده ، و لم يعد مهموما إلا بذاته ومصيره."[lxxv]

وبينما جاء الترتيب في آية الفرار تصاعديا ، فقد جاء الترتيب في آية الافتداء تنازليا على العكس من موقف الفرار ؛ وذلك لأنه موقف قد بلغ فيه الكرب والهول ذروته ؛ وهذا ما تكشف عنه الآيات السابقة لهذه الآية من أول السورة إلى هذا الموضع ، قال تعالى :" سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ" (المعارج :١١)

فلشدَّة الكرب وهوله ورغبة المجرم في سرعة الخلاص من الكرب والهول فإنه يسارع بالافتداء بأعزِّ ما يملك – إن كان يملك في ذلك اليوم شيئا – فليس الموقف موقف مساومة ؛ ثم إذا لم يقبل ذلك منه زاد أكثر وأكثر حتى يفتدي بمن في الأرض جميعا إن كان يملك ذلك على أن ينجو بذلك.

الصورة الخامسة :تقديم فضلة على أخرى غيرها في النوع.

فمن ذلك :

(أ) تقديم الصفة أو الحال على الظرف وعكسه :

وذلك كما في قوله تعالى في سورة البقرة : "**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**"(البقرة :٣٥)

وقوله تعالى فيها أيضا :"**وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**"(البقرة:٥٨)

"(رغدا) صفة مصدر محذوف: أي أكلا رغدا أي طيبا هنيئا، ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال تقديره: كلا مستطيبين متهنئين ، (حيث) ظرف مكان، والعامل فيه كلا، ويجوز أن يكون بدلا من الجنة فيكون حيث مفعولا به، لأن الجنة مفعول وليس بظرف"[lxxvi]

لم أجد في كلام المفسرين في بيان سرِّ التقديم والتأخير في هذا الموضع ما يميط اللثام صريحا عنه ؛ ولكني استطعت أن أستشف من كلامهم ما يعينني على محاولة بيان الفرق بين الموضعين ؛ وهو أن آية البقرة في الامتنان على آدم وزوجه قدمت ما هو الأهم في القصة ؛ وهو أن الله تعالى قد أباح لآدم وزجه رزقا رغدا واسعا ، غير محصور ، و لم يحرم عليهم سوى شجرة واحدة فخالفا ووقعا في معصية الخالق ، وطاعة عدوهما ؛ فالمقصود إذا هو إبراز المفارقة بين توسعة الله تعالى على آدم وزوجه ، وتضييقهما على أنفسهما بإيثار شجرة واحدة هي تلك الشجرة التي نهيا عنها دون ما أبيح لهما من الرزق الواسع الرغد.

قال الرازي :"فإنه أطلق له في جميع مواضع الجنة بقوله : { وكلا منها رغداً حيث شئتما} [البقرة : ٣٥] ثم منع من شجرة واحدة فلم يملك نفسه حتى وقع في الشر"[lxxvii]

أما في الآية التي امتن الله فيها على بني إسرائيل بإنعامه عليهم بتمكينهم من دخول الأرض المقدسة التي أبوا أن يدخلوها فاتحين منتصرين ، وقد كتب الله لهم دخولها ؛ فحرمها عليهم أربعين سنة ، ثم أباحها لهم ، وقد كانت بأيدي عدوهم فمكنهم منها ؛ لذا كان المقدم والأهم في الامتنان هو الامتنان عليهم بإباحة القرية لهم بكاملها ؛ بحيث يكون لهم وحدهم فيها مطلق التصرف ، حيث شاءوا لا سلطان عليهم من أحد في ذلك ، مع ما أبيح لهم فيها من الرزق الواسع الرغد ، لكن المقدم والمقصود الأعظم ، والمنة العظمى عليهم : هي في إطلاق أيديهم في تلك القرية ، ونيل حريتهم فيها بعدما كان مضيقا عليهم من أعدائهم ،قال الألوسي :"{ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا } أي واسعاً هنيئاً ونصبه على المصدرية أو الحالية من ضمير المخاطبين ، وفي الكلام إشارة إلى حلّ جميع مواضعها لهم ، أو الإذن بنقل حاصلها إلى أي موضع شاءوا مع دلالة (رغداً) على أنهم مرخصون بالأكل منها واسعاً وليس عليهم القناعة لسد الجوعة."[lxxviii]

(ب) تقديم أحد متعلقات الفعل على غيره :

فمن ذلك قوله تعالى :" يأيها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (البقرة:١٧٣)
مع قوله تعالى :"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"(المائدة:٣)

مع قوله تعالى :"فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ "(النحل: ١١٨)

مع قوله تعالى :"قُلْ لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "(الأنعام :١٤٥)

ذهب الكرماني مذهبا عجيبا في هذا الموضع حيث رأى أن تقديم الباء هو الأصل ، ولما كانت آية البقرة هي الأسبق "كان الموضع الأول أولى بما هو الأصل ؛ ليعلم ما يقتضيه اللفظ"[lxxix]

وهذا كما يبدو كلام غريب غير مقبول ؛ إذ إن سورة البقرة مدنية باتفاق ، والنحل والأنعام مكيتان باتفاق كذلك ؛ فكيف تكون البقرة هي الأسبق ، أما إذا كان يعني ترتيب السور في المصحف ؛ فهذا مناقض لكلامه أن "الموضع الأول أولى بما هو الأصل ؛ ليعلم ما يقتضيه اللفظ"فمعنى ذلك أنه لم يعلم ما يقتضيه اللفظ حتى نزلت الآية المتأخرة ، وليست الأسبق كما يقول .

أما ابن جماعة فقد كان كلامه أوفق ، وأكثر استقامة ،وأحسن تعليلا حيث قال :"إن آية البقرة وردت في سياق المأكول وحلّه وحرمته ؛ فكان تقديم ضمير وتعلق الفعل به أهم ، وآية المائدة وردت بعد تعظيم شعائر الله وأوامره والأمر بتقواه ، وكذلك آية النحل بعد قوله :"**واشكروا نعمة الله** " (النحل : ١١٤)، وكان تقديم اسمه أهم ، وأيضا فإن آية النحل والأنعام نزلتا بمكة ؛ فكان تقديم ذكر الله بترك ذكر الأصنام على ذبائحهم ، لما يجب من توحيده وإفراده بالتسمية على الذبائح ، وآية البقرة نزلت بالمدينة على المؤمنين لبيان ما يحل ويحرم فقدم الأهم ، والله أعلم."[lxxx]

وهذا كلام سديد يؤيده سياق الآيات ؛ فآية البقرة إنما سبقها قوله تعالى :" **يأيها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** " فكان تقديم ما يتعلق بالمأكول وهو (به) أهم .

أما المواضع الأخرى ؛ فآية المائدة قد وردت بعد الأمر بتعظيم شعائر الله مما يقتضي توحيده وعدم الإشراك به في قوله تعالى :" **يأيها الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ** ..."(المائدة :١-٢)

وكذلك آية النحل كما بين ، وكذلك آية الأنعام قد سبقها قصة إشراك المشركين بالله تعالى غيرهم في ذبائحهم ونسكهم وغير ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى :"**وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**" (الأنعام :١٢١)

خاتمة في أغراض التقديم والتأخير في متشابه القرآن :

من خلال ما سبق عرضه - من أمثلة البحث ومادته – نستطيع أن نلخص الأغراض التي ذكرها المفسرون والمصنفون في متشابه القرآن للتقديم والتأخير في ذلك المتشابه – سواء كانت تلك الأغراض مما يوصف بكونها أغراضا بلاغية ، أو كانت مجرد تعليل ذكره هؤلاء المفسرون للتقديم والتأخير في تلك الآيات ، مما لا يصح وصفه بكونه غرضا بلاغيا- فنلخصها في الآتي:

الاهتمام : وذلك هو الغرض الأساسي للتقديم والتأخير وهو ما عوَّل عليه معظم المفسرين والبلاغيين ،وعليه دارت أكثر الأمثلة التي ذكرناها في هذا البحث ، وهو ما نص عليه سيبويه كغرض أساسيّ في التقديم والتأخير ، وذلك حيث قال :" كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم."[lxxxi]

التخصيص : وذلك كما مرَّ بيانه عند قوله تعالى : { قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهدى }، حيث جاءت الآية على هذا النحو من تقديم (هدى الله) وتعريف الجزأين ، والفصل بالضمير ؛لإفادة القصر الإضافي – قصر الهدى الحقيقي الكامل على هدى الله تعالى وحده.

رعاية الفاصلة :وهو مما عوّل عليه بعض المفسرين والمصنفين في المتشابه حينما أعيتهم الحيلة في تأويل ما تشابه عليهم ، وقد أوردنا لذلك في هذا البحث عددا من الأمثلة من كلامهم [lxxxii]، وبينا أن النكتة في التقديم أو التأخير في تلك الأمثلة لا ترجع لمجرد رعاية الفاصلة ما لم يكن لذلك فائدة في المعنى بحيث يقتضيه المعنى تمام الاقتضاء ، ولو كان ذلك سائغا لما اشتدَّ نكير البلاغيين على من يتكلف الجناس أو السجع أو غير ذلك دون رعاية للمعنى بحيث يكون المعنى هو الذي يتطلبه ، كما يقرر ذلك عبد القاهر وغيره من عمالقة البيان.[lxxxiii]

موافقة الأصل : وهذا أيضا مما عوَّل عليه بعضهم [lxxxiv]، ورددته في البحث ، وبينت أن موافقة الأصل تصلح للتعليل النحوي أو اللغوي البحت ، لا للتعليل البلاغي الذي لا يكتفى فيه بموافقة الأصل ، أو مجرد البحث عن الصحة اللغوية ؛ وذلك لأنه كان في مقدور المتكلم الخروج على الأصل والعدول عنه كما هو وارد في أساليب البلغاء والفصحاء بما لا يمكن إنكاره ، وهو متقرر في نظام اللغة لا تأباه ولا تنفر منه ، بل تزدان به وتزداد به رونقا وبهاء ، وهذا مما قرره البلاغيون في مواضع عديدة لا نطيل بذكرها.[lxxxv]

---

* أستاذ البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن المساعد بكلية دار العلوم جامعة القاهرة .

[i] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – تصحيح السيد محمد رشيد رضا – ط دار المعرفة – بيوت – لبنان – ص ٨٣

[ii] انظر بعض مواقع الطاعنين في القرآن على شبكة الإنترنت : موقع اللادينيين :https\admin.ladinyoon.net وموقع الحوار المتمدن وموقع آخر للنقد العقلاني للقرآن – على زعمهم - http://www.ahewar.org/debat/show

[iii] الزركشي – البرهان في علوم القرآن – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط دار التراث – ١٩٧٢ – ١١٢/١، والسيوطي – الإتقان في علوم القرآن – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٤ – ٢٩٠/٣

[iv] ابن جماعة : محمد بن إبراهيم بن سعد الله – كشف المعاني في متشابه المثاني- تحقيق د/ محمد داود – ط١ – دار المنار – ١٤١٨هـ – ١٩٩٨ م – المقدمة

[v] الكرماني – البرهان في متشابه القرآن – اعتنى به : أحمد عز الدين خلف الله – ط دار الوفاء – المنصورة – ط ٢ – ١٩٩٨م – ص ٩٧ – ٩٨

[vi] انظر :الخطيب الإسكافي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصفهاني – درة التنزيل وغرة التأويل – ط الخانجي – ص٣ ، و ابن الزبير الغرناطي –ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل – تحقيق د/ محمود كامل – ط دار النهضة العربية –١٩٨٥ –ص٣

• انظر : د / إبراهيم الخولي – بلاغة التكرار – الشركة العربية ١٩٩٣–ص ٢٤ – ٣٨ – ٥٨ ، ود/ سعد عبد العظيم – التكرار في القرآن الكريم – صحيفة دار العلوم – ديسمبر ١٩٩٧– ص ١٠ – ١١

[vii] د/سعد عبد العظيم محمد – استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات – قم إيداع بدار الكتب المصرية رقم ٩٩/٥١٤٩ – ص ٦– ٧ .

[viii] عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – السيد رشيد رضا – دار المعرفة بيروت ١٩٧٨– ص ٢٠١ – ٢٠٢

[ix] انظر في ذلك : د/ سعد عبد العظيم – استدراك ما فات – ص ٨ ، وانظر أيضا : ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن – السيد صقر – دار التراث ١٩٧٣ – ٢٣٠ ، القاضي عبد الجبار الهمداني – المغني في أبواب التوحيد والعدل – وزارة الثقافة والإرشاد – ٤٠٠/٦ ، ابن رشيق – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – محمد محيي الدين عبد الحميد – دار الجيل بيروت –٧٣،٧٤/٢ ، الزركشي – البرهان في علوم القرآن – ٢٥/٣ ، السيوطي – الإتقان في علوم القرآن – ٢٣٠/٣ ، ابن أبي الإصبع – تحرير التحبير – تحقيق د/ حفني شرف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٣–ص ٣٧٥ ، ابن النقيب – مقدمة تفسير ابن النقيب- تحقيق د/زكريا سعيد علي – الخانجي ١٩٩٥ ص ٢٢٦ – ٢٣٠.

[x] د/ سعد عبد العظيم – السابق

[xi] أبو هلال العسكري – الصناعتين – تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل – دار الفكر العربي – ط٢ ص ١٦٧

[xii] دلائل الإعجاز –ج ١ / ص ٩٦

[xiii] سيأتي قريبا بيان علة التقديم للصابئين أو تأخيرهم بين هذه الآية والآيات المتشابهة معها.

[xiv] سيتم الوقوف عند هذه الأمثلة لتحليلها ، وبيان علة التقديم فيها في موضعها من البحث .

[xv] دلائل الإعجاز –ج ١ / ص ٩٦

[xvi] الكرماني :٣٥

[xvii] ابن جماعة:ص ٦٣ ، شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي – تحقيق د/ السيد الجميلي ، د/ أحمد السايح – ط مركز الكتاب للنشر – ط١ – ١٩٩٩ – ص: ٢٦

[xviii] الكشاف - **أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله – ط العبيكان** (ج ١ / ص ١٢٧)

[xix] الطاهر بن عاشور- التحرير والتنوير – ط الدار التونسية (ج ١ / ص ٤٥٨)

[xx] التحرير والتنوير (ج ١ / ص ٤٥٩)

[xxi] وذلك كما جاء في قوله تعالى في (آل عمران : ١٩) "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ"

[xxii] تفسير البغوي - دار طيبة للنشر والتوزيع - (ج ٢ / ص ٥٤)

[xxiii] تفسير ابن كثير (ج ٣ / ص ١٠)

[xxiv] الخطيب الإسكافي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصفهاني - درة التنزيل وغرة التأويل رسالة دكتوراة – جامعة أم القرى - تحقيق محمد مصطفى آيدين – ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م - ص ١٠٨٤ – ١٠٨٥.

[xxv] ابن جماعة : ص ٣٠٤

[xxvi] الألوسي - تفسير روح المعاني – ط دار إحياء التراث العربي (ج ١٦ / ص ٤٤٧)

[xxvii] التحرير والتنوير (ج ١٢ / ص ٢٣)

[xxviii] الكرماني :١٤٥

[xxix] تفسير ابن كثير (ج ١٢ / ص ٧٨)

[xxx] تفسير الألوسي - (ج ٢ / ص ٢٦١)

[xxxi] تفسير الألوسي - (ج ٢٠ / ص ٣١٥)

[xxxii] تفسير الألوسي (ج ٢١ / ص ٤٦)

[xxxiii] تفسير الألوسي - (ج ٣ / ص ٢٧٠)

[xxxiv] تفسير الألوسي - (ج ٢٠ / ص ٣٩٢)

[xxxv] التحرير والتنوير- (ج ١٤ / ص ٤٦٠)

[xxxvi] تفسير الرازي - طبعة بيروت (ج ٧ / ص ٤٧٤)

[xxxvii] تفسير الرازي - (ج ١٥ / ص ٢٧٩)

[xxxviii] ابن كثير - (ج ٣ / ص ١٤٤)

[xxxix] تفسير البغوي - دار طيبة للنشر والتوزيع - (ج ٤ / ص ١٩)

[xl] تفسير الرازي - (ج ١٥ / ص ٢١٩)

[xli] التحرير والتنوير - (ج ١٤ / ص ٤٤١)

[xlii] التحرير والتنوير - (ج ١٥ / ص ١٢٢)

[xliii] مشكل إعراب القرآن — ط دار الكتب العلمية — بيروت (ج ١ / ص ٥٥)

[xliv] الغرناطي ص ١١٠

[xlv] الكرماني : ص ٣٢

[xlvi] ابن جماعة : ص ٧٧

[xlvii] الشيخ زكريا الأنصاري : ص ٥٠

[xlviii] سيرد ذلك - إن شاء الله تعالى — في خاتمة البحث ، في بيان الأغراض البلاغية للتقديم والتأخير.

[xlix] مشكل إعراب القرآن - (ج ١ / ص ٧)

[l] الكرماني :ص ١٢

[li] أسرار التكرار في القرآن - (ج ١ / ص ٣٤)

[lii] تفسير الرازي - (ج ٢ / ص ٨٠)

[liii] الشيخ زكريا الأنصاري : ص ٢٠

[liv] الغرناطي : ص ٣٩

[lv] الإسكافي — تحقيق محمد آيدين ٢٢٨

[lvi] السابق

[lvii] ابن جماعة : ص ٥٧ - ٥٨

[lviii] يقصد البقرة:٢٨٤

[lix] الكرماني/ ص ٤٥

[lx] الغرناطي :ص ١٠١

[lxi] سيأتي قريبا بيان علة التقديم للصابئين أو تأخيرهم بين هذه الآية والآيات المتشابهة معها.

[lxii] الإسكافي — تحقيق محمد آيدين — ص ٢٥٠ - ٢٥٨

[lxiii] انظر نحوا من كلام الإسكافي والكرماني عند ابن جماعة ص ٦١ ، والأنصاري ص ٢٣

[lxiv] الكرماني :٣١

[lxv] الإسكافي — تحقيق محمد آيدين — ص ٢٥٠ - ٢٥٨

[lxvi] قال ابن كثير بعد ما عدد الأقوال في حقيقة الصابئين :" وأظهر الأقوال، والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئي، أي: أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم." تفسير ابن كثير – (ج ١ / ص ٢٨٧)

[lxvii] تفسير الرازي – (ج ١٢ / ص ١٩٧)

[lxviii] ابن عادل – تفسير اللباب (ج ١٢ / ص ٤٦٧)

[lxix] التحرير والتنوير – (ج ١ / ص ٣٢١٥)

[lxx] أسرار التكرار في القرآن – (ج ١ / ص ٦٨)

[lxxi] الإسكافي – تحقيق محمد آيدين – ٤٤/٢

[lxxii] السابق

[lxxiii] د/ حسن طبل – علم المعاني في الموروث البلاغي – تأصيل وتقييم – مكتبة الإيمان بالمنصورة – ط٢– ٢٠٠٤ – ص ١٣٤

[lxxiv] تفسير الرازي – (ج ١٦ / ص ٣٧٠)

[lxxv] بلاغة العطف في القرآن الكريم ص ١٠٤

[lxxvi] املاء ما من به الرحمن – (ج ١ / ص ٣٠)

[lxxvii] تفسير الرازي – (ج ١ / ص ٤٩٨)

[lxxviii] تفسير الألوسي – (ج ١ / ص ٣٢٦)

[lxxix] الكرماني – تحقيق أحمد خلف الله – ص١٢١

[lxxx] ابن جماعة – تحقيق د / محمد داود – ص ٦٧

[lxxxi] الكتاب – (ج ١ / ص ٦)

[lxxxii] وذلك كما في تعليلهم لتأخر ذكر الكبر في قوله تعالى :" وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا" (مريم:٨) ، فيما أوردناه في أصل البحث عن كل من الكرماني والغرناطي وابن جماعة وزكريا الأنصاري ،وكذلك في قوله تعالى :"والله بما تعملون خبير " والله خبير بما تعملون " حيث عزاه بعضهم لرعاية الفاصلة ، وكما في قوله تعالى في غير ما ذكرنا من الأمثلة : تعليلهم لتقدم هارون ، في قوله تعالى "رب هارون وموسى " حيث ذهب جمع منهم إلى أنه لرعاية الفاصلة .

[lxxxiii] أسرار البلاغة – (ج ١ / ص ٣)

[lxxxiv] انظر على سبيل المثال فيما مرَّ في البحث تعليل الكرماني وغيره تقدُّم (رجل) في قوله تعالى "وجاء رجل من أقصى المدينة " بأن هذا هو الأصل ، وكذلك كما جاء عن بعضهم في قوله تعالى : "والله بما تعملون خبير " والله خبير بما تعملون " حيث عللت الجملة الأخيرة بأنها الأصل كذلك، وقد بينت ما يرد ذلك به.

[lxxxv] قال ابن الأثير :"موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية وهو والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من الوضع اللغوي، و تلك دلالة عامة،و صاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة، و هي دلالة خاصة،و المراد بها أن يكون على هيئة مخصومة من الحسن، و ذلك أمر وراء النحو و الأعراب." المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - (ج ١ / ص ٢)